152304 - يخاف أن تحبط أعماله الصالحة يوم القيامة

السؤال

إني أخاف أن لا يُعتد بأعمالي الصالحة يوم القيامة ، فألقى في النار ، فقد سمعت قصة تقول : إن شاباً كان له أمّ ، قضّى حياته في خدمتها والاعتناء بها ، فكان ينظفها ويغسلها ويلبي جميع احتياجاتها ، ثم في يوم من الأيام قال في نفسه : إذا ماتت فإني لن أكترث لذلك (أو ما شابه ذلك من اللفظ)، فأتى يوم القيامة فألقاه الله في نار جهنم . أخاف أن أكون قد قلت أو نويت شيئاً سيئاً فيحبط به عملي يوم القيامة . أرجو المساعدة ، وما هو الفهم الصحيح في مثل هذه المسائل ، إجابتكم قد تغير حياتي تماماً ، فأرجو تزويدي بالعلم الصحيح لكي أسير على النهج الذي يرضي الله تعالى ؟

الإجابة المفصلة

الخوف من حبوط العمل وسوء الحساب يوم القيامة واحد من أعظم أعمال القلوب التي أقضّت مضاجع الصالحين ، وأرّقت منام الأولياء المتقين ، وسالت لأجلها دموع العابدين الذين وصف الله عز وجل قلوبهم بالوجل ، وزكاهم بالمسارعة إلى خير العمل ، وذلك في قوله عز وجل : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) المؤمنون/60-61

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ : أَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ : لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ! وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)

رواه الترمذي (رقم/3175) وصححه ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (1/176)

ومع ذلك لم يتحول الخوف – لدى هؤلاء – إلى هاجس يضعف عن العمل ، أو قنوط ووسواس يخالف في مضمونه العشرات من آيات الرجاء في القرآن الكريم .

ألم تسمع قول الله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء/70.

وقوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) القصص/84.

وقوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) الكهف/30-31.

ويقول سبحانه : (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) يوسف/90

فالواجب على المسلم أن يؤمن – إيماناً حقيقياً يظهر أثره في الجوارح والقلوب – بعدل الله وكرمه ، وأنه سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يظلم مثقال ذرة ، بل يجازي بالإحسان إحساناً ، وبالإساءة عفواً وصفحاً وغفراناً لمن يشاء عز وجل .

ولتسمع ـ يا عبد الله ـ إلى خطاب ربك لنا ، وخبره الصادق عن نفسه سبحانه ، الذي يخاطب العقول والقلوب معا : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) النساء/174 .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره لذلك :

" أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ ؛ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال ، الدائبين في الأعمال : جزيل الثواب وواسع الإحسان . ومن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه . ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم ، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق ، وضد ذلك . وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه ، فإذا أنبتم إليه : فأي شيء يفعل بعذابكم ؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم ، ولا ينتفع بعقابكم ؛ بل العاصي لا يضر إلا نفسه ، كما أن عمل المطيع لنفسه .

والشكر : هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله ، وثناء اللسان على المشكور ، وعمل الجوارح بطاعته ، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه" انتهى من "تفسير السعدي" (211) .

وقد كان الخوف من سوء الحساب وحبوط العمل أهم أسباب صلاح الأرض وعمارتها بالعمل الصالح والأخلاق الفاضلة ، كما نص على ذلك في القرآن الكريم في الآية السابقة في قوله عز وجل : (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) المؤمنون/60-61

وأشار إليه مرة أخرى أيضاً حين قرن الخوف من سوء الحساب يوم القيامة بصلة الأرحام والفقراء وأهل الحاجات ، وذلك في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) الرعد/21.

ولذلك ورد عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال : " من خاف الله دلَّه الخوفُ على كل خير " انتهى.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله – بعد أن قسم الخوف إلى ثلاثة أحوال: اعتدال، وتقصير، وإفراط – :

" وأما المُفرِط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضاً ؛ لأنه يمنع من العمل ، وقد يَخرُج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف هو المراد من السوط ، وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كمالا .... فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي ، والسوط الذي يُهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط ، المفضي إلى القنوط ، أو أحد هذه الأمور .

فكل ما يراد لأمر : فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم .

وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة ، والعبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن ، وسلامة العقل ، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم " انتهى من " إحياء علوم الدين " (4/157-158).

فالحاصل أن الشريعة تأمرك أن توازن بين الخوف والرجاء ، وتعتدل بين الخشية والأمل ، فلا تغلب أحدهما على الآخر ، بل تسير بهما إلى الله سير الطائر ذي الجناحين ، ولا يستزلنك الشيطان فيضعف فيك جانب الرجاء ، وينسيك الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة الدالة على سعة كرم الله وجوده ، وأن العمل الصالح المخلص اليسير قد يكون كافيا لدخول الجنة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

(بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ)

رواه مسلم (رقم/1914)

وانظر جواب السؤال رقم : (125618)

والله أعلم .